نشأة النقد :-

النقد أمر فطري في الإنسان فالإنسان يميز بفطرته بين الخير و الشر، وبين القبح والجمال، وبين اللذة والألم، وينفر من الكلمة الخشنة الجافة.

لما طرح السؤال حول البداية الأولى للنقد العربي، تعددت الإجابات وتشعبت، فاختلف الناس فيها بين قابل ورافض، ولكل واحد من الطرفين منطلق يبرر به قبوله أو رفضه. هكذا أثارت مرحلة البداية الأولى للنقد نقاشا محتدما بين الباحثين المحدثين الذين اختلفوا في تقويم ما أثير عن هذه المرحلة من أقوال نقدية ، وأحكام موجزة مرتجلة، ومقاييس ذوقية غير معللة.

ففريق من الباحثين يرى أن مرحلة العصر الجاهلي هي المرحلة التي تطور عنها النقد لينتهي إلى أن العرب عرفوا النقد انطلاقا من التلازم المفترض بين الشعر والنقد، فما دام لدينا شعر فلا بد أن يكون لدينا نقد، بل منهم من يذهب أبعد من ذلك حين يعتبر ن النقد أسبق إلى الوجود من تلك الفنون" وهل الأديب إلا ناقد قبل أن تأخذ أفكاره صبغتها الفنية، ومن اشهر من حمل مشعل هذه الفئة: الأستاذ طه أحمد إبراهيم والأستاذ محمد زغلول سلام.

وفريق قرأ النقد العربي القديم انطلاقا من مفاهيم نقدية مستمدة من الثقافة الغربية، وانتهى برفضه للبداية الأولية للنقد، لينص أن النقد لن يظهر إلا في القرن الرابع الهجري، وقبل هذه المرحلة لا يمكن أن يعتد به.

وبذلك يكون قد أعاد قراءة النقد العربي القديم من خلال تصورات ومفاهيم جديدة حول النقد، يحكمه منهج مأخوذ من ثقافة الآخر، ومن رواد هذه الفئة د. محمد مندور .

وفريق ثالث نص على أن النقد العربي لن يظهر إلا بظهور الفلسفة وقد توصل لهذه النتيجة من خلال استقراء تاريخي لتاريخ النقد الأدبي في أوربا و مادامت الفلسفة قد تأخر ظهورها في الثقافة العربية، فطبيعي أن يتأخر ظهور النقد، ولن يظهر إلا مع ظهور الفكر الفلسفي على يد المعتزلة و المتكلمين، ومن رواد هذا الطرح الدكتور محمد غنيمي هلال .

ومن الأدلة على وجود النقد في العصر الجاهلي ، حيث كانت تضرب قبة حمراء للنابغة فيتوافد عليها الشعراء من أجل الحكم على أشعارهم. فقد جاءه مرة الأعشى والخنساء وحسان بن تابث فأنشده الأعشى قصيدته التي مطلعها:

مَا بُكَاءُ الكَبير بِالأطلالِ   وسؤالِي وما تَرُدُّ سؤالي

وأنشده حسان بن ثابت قوله:

لنَا الجَفَنَات الغُرِّ يلمعن بالضُحَى   وأسْيَافُنَا يقطرن من نجدةِ دمَا

أما الخنساء فقد أنشدته قصيدتها في رثاء أخيها صخر:

قذىً بعينك أم بالعين عُوارُ   أَم أقْفَرتْ مُذْ خَلَتْ مِنْ أهْلِهَا الدَّارُ

وإن صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الهُدَاةُ بِه   كأنَّـهُ عَلَـمٌ في رَأْسِهِ نـارُ

فقال النابغة: لولا أن أبا بصير -يعني الأعشى- أنشدني ، لقلت : إنك أشعر الجن والإنس يقصد الخنساء .

من هذا الخبر ندرك منزلة النابغة عند معاصريه، وما احتكامهم إليه دون غيره إلا اعتراف علني بشاعريته، وقدرته على تمييز الجيد من الرديء في الشعر، ودليل كذلك على ما كان يتمتع به من علم بصناعة الشعر ومن ملكة خاصة في النقد.

وكذلك ما عيب على النابغة من ارتكابه للإقواء ولم يستطع أحد أن يصارحه به حتى دخل يثرب مرة فأسمعوه إياه غناء في قوله:

أمن آل مَيَّة رائحٌ أو مُغْتدي   عَجْلان ذا زادٍ، وغير مزودِ

زعمَ البوارحُ أن رحْلتنا غدا   وبذلك خبَّرنا الغُرابُ الأسودُ

ذكر الاصفهاني أن النابغة قدم المدينة، فعيب عليه هذا الإقواء فلم يأبه حتى جاءوه بجارية فجعلت تغنيه "أمن آل مية رائح أو مغتد " وتطيل حركة الدال وتشبعها في "مغتدي" و"مزود". ثم غنت البيت الأخير فبينت الضمة في قوله "الأسود" ففطن بذلك لما يريده، فغير عروضه وجعله " وبذلك تصاب الغراب الأسود". وكان من اجل هذا يقول (وردت يثرب وفي شعري بعض العاهة فصدرت عنها و أنا اشعر الناس).

ومن الأمثلة على هذا اللون حكومة أم جندب امرأة امرئ القيس التي تحاكم إليها زوجها وعلقمة الفحل أيّهما أشعر فقالت : قولا شعرا تصفان فيه الخيلَ على رويٍّ واحدٍ وقافية واحدة فقال امرؤ القيس:

خليليَّ مُرَّا بي على أمّ جندبِ لنقضيَ حاجاتِ الفؤادِ المعذّبِ

وقال علقمة :

ذهبْتَ منَ الهجْرانِ في كلّ مذهبِ ولم يكُ حقّاً كلُّ هذا التّجنُّبِ

فقالت لامرئ القيس : علقمة أشعرُ منك . قال: وكيف ذلك؟ قالتْ : لأنّكَ قلتَ:

فللسوطِ أُلهوبٌ وللساقِ درّةٌ وللزّجْرِ منه وقعُ أخْرَجَ مُهْذِبِ

فجهدتَ فرَسكَ بسوطكَ ومرَيْتَهُ بساقكَ وقال علقمةُ:

فأدرَكَهنّ ثانيا من عِنانه يمرُّ كمرِّ الرائحِ المتحلّبِ

فأدركَ طريدته وهو ثانٍ من عِنانِ فرسه لم يضربه بسوط ولا مَرَاه بساقٍ ولا زجره . قال : ما هو بأشعرَ منّي ولكنّك له وامقٌ ! فطلّقها فخلَفَ عليها علقمةٌ , فسمي بذلك (الفحلُ) .

ومن النماذج والشواهد أيضاً ما أورده المرزباني بسنده قائلا: تحاكم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وعبدة بن الطبيب والمخبّل السعدي إلى ربيعة بن حذار الأسدي في الشعر , أيّهم أشعر؟ فقال للزبرقان: أما أنت فشعرك كلحم أسخن لا هو أنضج فأكل ولا ترك نيّئا فينتفع به , وأما أنت ياعمرو فإنّ شعرك كبرود حبر يتلألأ فيها البصر فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر , وأما أنت يا مخبّل فإنّ شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم وأما أنت يا عبدة فإنّ شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر.

فقد كان النقد الجاهلي في أوله ساذجا سذاجة البيئة الطبيعية والاجتماعية، فكان النقاد يطلقون أحكاما متنوعة على الشعر في أيامهم، تتناول الشاعر والقصيدة جملة، وقد يكون هذا الحكم مبنيا عندهم على إعجابهم ببيت من أبيات القصيدة أو بجزء من البيت، وقد يرجع هذا الحكم إلى إعجابهم بالشاعر نفسه وبشخصيته.

لقد صدرت الأحكام النقدية الجاهلية متسمة بالذوق الفطري الذي يعتمد على إحساس الناقد المباشر بالمعنى أو الفكرة، فهو يتلقاها ويحسها بذوقه الفج، وفطرته الساذجة. ولهذا تصدر أحكامه مرتجلة نتيجة لهذا التذوق المباشر.

فنجد النابغة يستنكر على حسان بن ثابت استعمال القلة في مقام الفخر في قوله:

لَنَا الجفناتُ الغرِّ يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فعلق على هذا البيت أبو بكر الصولي بقوله : (فانظر إلى هذا النقد الجليل الذي يدل على نقاء كلام النابغة ، وديباجة شعره ، وقال له : أقللت أسيافك، لأنه قال : وأسيافنا : جمع لأدنى العدد ، والكثير (سيوف) ، والجفنات لأدنى العدد والكثير (جفان) . وقد اعتمد في ذلك على ذوقه الفطري الذي صقلته ثقافته العربية الواسعة ، وأحاطته بعادات قومهم وقيمهم .

نستطيع أن نقول: إن النقد الذي مارسه قدامى النقاد العرب في بدايات النقد وأولياته لم تكن له أصول معروفة، ولا مقاييس مقررة، بل كان مجرد لمحات ذوقية ، ونظرات شخصية ، تقوم على ما تلهمهم به طبائعهم الأدبية، وسليقتهم العربية، وأذواقهم الشاعرة، وحسهم اللغوي الدقيق بلغتهم ، وإحاطتهم بأسرارها ، ووقوفهم على ما للألفاظ من دلالات وإيحاءات في شتى صورها ، بالإضافة إلى ما تزودهم به الطبيعة العربية الجاهلية من معارف وتقاليد ، تساعدهم كثيراً في لمحاتهم النقدية ، ونظراتهم الشعرية .

وحينما نحاول تطبيق هذه المقاييس الذوقية الفطرية التي على أساسها كان الناقد الجاهلي يستلهم أحكامه، ويبنى نقده.. حينما نحاول تطبيق ذلك على ما تقدم من لمحات نقدية، نجد ذلك واضحاً تمام الوضوح.

فنقد النابغة الذبياني لشعر حسان بن ثابت- والذي أوردناه من قبل- كان مستمداً من فهم النابغة لطبيعة اللغة العربية، ومعرفته التامة بدلالات الألفاظ، وما توحي به أبنية الكلمات من معان وإيحاءات.

ونقد أهل المدينة لشعر النابغة، لما فيه من إقواء، كان نابعاً من فهم العربي لطبيعة الشعر العربي، ولما ينبغي أن يكون عليه من انسجام في الوزن، واتساق في النغم، الأمر الذي يتطلب- ضمن ما تتطلبه قواعد الشعر العربي- وحدة حركة الروى، التي تكسب الشعر اتساقاً وانسجاماً ، ولذا كان اختلاف حركة الروى- الإقواء- في شعر النابغة مذهباً لروعة الوزن، واتساقه، بل محدثاً لنوع من التنافر في النغم، مما جعله غير متسق ولا منسجم.

أولاً : النقد عند العرب في الجاهلية

النقد الأدبي عند العرب في الجاهلية كان تأثرياً آنياً يعتمد على الذوق الفطري ويتضمن أحكاماً جزئية وتعميمات ومبالغات كثيرة ، وليست له قواعد محددة.

ثانياً : في عصر صدر الإسلام :

أحدث الإسلام ارتقاء في الفكر والذوق عند العرب ، فتقدم النقد الأدبي خطوة إلى الأمام وظهرت أحكام نقدية فيها شيء من التدقيق والتعليل ، تهتم بالصدق والقيم الرفيعة في العمل الأدبي.

ثالثاً : في القرن الهجري الثاني:

أثرت الحركة العلمية الإسلامية في النقد الأدبي فظهرت طائفة من النقاد اللغويين والرواة الذين جمعوا الشعر القديم ، ونظروا فيه ، ووازنوا بين الشعراء ، وحكموا على أشعارهم ، وبينوا صفاته الفنية ، أشهرهم : أبو عمرو بن العلاء والأصمعي ويونس بن حبيب .